الناسُ هُمُ التفاؤل والدولةُ هي التشاؤم

2018-01-30سجعان قزي

الدولةُ اللبنانيّةُ تدعو الناسَ إلى التفاؤلِ وتُقدِّمُ لهم القَرَف، والناسُ يَتمنّون التفاؤلَ ولا يَجِدون سَنَدًا له في أعمالِ الدولة. الدولةُ تُشيعُ التفاؤلَ لإعطاءِ انطباعِ أنَّ ممارساتِها المغلوطةَ هي صحيحةٌ، والشعبُ اللبنانيُّ يَجفُلُ رُغمَ طبيعتِه المتفائِلة، فعينٌ لا ترى نَفسٌ لا تتفاءَل. لقد جرى تَسييسُ كلمتَي "تفاؤلٍ" و"تشاؤمٍ". صارا مِحورَيْن. وباتَ الشعورُ النفسيُّ بالتشاؤمِ تجاهِ الوضعِ الملوَّثِ، موقِفًا سياسيًّا نُعاتَبُ عليه.

عَلاوةً على أنَّ التفاؤلَ والتشاؤمَ وِجْهتَا نظرٍ في الحياةِ اليوميّة، هُما نظرَتان فلسفيّتان إلى الإنسانِ والمجتمعِ والحياةِ والكون. التفاؤلُ هو الثقةُ بالمستقبَلِ لا بالطَقس، والتشاؤمُ هو الخوفُ على المصيرِ لا على اللحظة. وكِلاهُما يتساوى في حثِّ الفردِ على النضالِ والثورةِ والتغيير. التفاؤلُ إيجابيّةٌ والتشاؤمُ صدمةٌ إيجابيّة. لكن التفاؤلَ الوَهميَّ أسوأُ مِن التشاؤمِ المُطلَقِ لأنّه يُبَنِّجُ الذاتَ ويُخدِّر المجتمعَ ويَمنعُ التغيير. هذه حالُنا في لبنان.

التفاؤلُ المُفرِطُ ما مَنعَ الفيلسوفَ الألمانيَّ "ليبنيز" (Leibniz) في القرنِ السابعِ عشَرَ والمشهورَ بعبارتِه: "كلُّ شيءٍ على ما يُرام"، مِن أنْ يؤسِّسَ أجيالاً في علمِ الفلسفةِ والحِساب. والتشاؤمُ الحذِرُ ما مَنعَ الفيلسوفَ الفرنسيَّ، "ڤولتير" (Voltaire)، مِن أنْ يُطلِقَ "عصرَ الأنوارِ" في القرنِ الثامنِ عشَر ويُلهِمَ الثورةَ الفرنسيّة.

في سياقِ المقارنة، أيُّهما أفضلُ: مواطِنٌ لبنانيٌّ يَقنَعُ بتقنينِ الشفافيّةِ والنزاهةِ والمياهِ والكهرباء، أو آخَرُ يَنقَمُ على التقنينِ ونحنُ في القرنِ الواحدِ والعشرين؟ الأوّلُ متفائلٌ نظريًّا لكنّه مُحبطٌ عمليًّا، أي متشائمٌ. والآخرُ متشائمٌ نظريًّا لكنّه متمرِّدٌ عمليًّا، أي متفائل.

في الدولِ المتقدِّمةِ حضاريًّا وعِلميًّا وإنمائيًّا، تَشعُر الشعوبُ بقلقٍ حَيَالَ المستقبَلِ وتَنتفِضُ، فكيف الحالُ بنا في لبنانَ وقد صِرنا في دارِ التخلّف؟ أظهرَ استطلاعُ رأيٍ لمؤسّسةِ إيڤوب (IFOP)

الفرنسيّة أنَّ 59% من الفرنسيّين متشائمون بمستقبَلِ بلادِهم مقابلَ 41% متفائلون به.

لكنَّ المفارقةَ هي نتائجُ استطلاعِ رأيٍّ أجرتْه مؤسّسةُ "وِن غالوب" (Gallup - Win) الأميركيّةُ مع 64 ألفِ مواطنٍ في 65 بلدًا، وأظهرَ التالي: 75% من الأفارِقةِ و67% من الأسيويّين و12% فقط من الأوروبيّين الغربيّين متفائلون بأيّامٍ فُضلى. أي أنَّ شعوبَ الدولِ الناميةِ أقلُ تشاؤمًا من شعوبِ الدولِ المتقدِّمة (أوروبا). يعود التفسيرُ، في ظنّي، إلى الفوارقِ في سقفِ الطموحاتِ والمتطلّبات، وإلى اختلالِ مستوى الثقافةِ بين هذه الدول. صارت القناعةُ ميزةَ الفقراءِ الـمُعْوزين عوضَ أن تكونَ سِمَةَ الأغنياءِ الميسورين.

بحبوحةُ طبقةٍ اجتماعيّةٍ واحدةٍ لا تَعكِسُ صِحَّةَ المجتمعِ اللبنانيِّ بل تؤكدُ اعتلالَه. ولازِمةُ التطميناتِ الرتيبةِ عن الأمنِ والاقتصادِ والاستقرارِ التي يُكرِّرها المسؤولون مؤشِّرُ ضُعفٍ لا مؤشِّرَ ثقة. إنّها استراتيجيّةُ التسكينِ الإعلاميِّ لتغطيةِ العجزِ السياسيّ. أبعْدُ من هذا العهدِ أو ذاك، ومن هذه الحكومةِ أو تلك، أليس غريبًا سلوكُ اللبنانيّين اللامبالي اجتماعيًّا والانهزاميُّ سياسيًّا؟

إنَّ ما يجري منذ سنواتٍ لا يَصُبُّ في مشروعِ بناءِ الدولةِ ولا في مشروعِ تقدّمِ الشعبِ اللبنانيّ، وكأنَّ مسارَ التجربةِ اللبنانيّةِ التحقَ بالمسارِ العربيِّ المتقَهْقِر. سنةَ 1920، بعد جولةٍ في تركيا والشرقِ الأوسط، كتبَ أرنولد توينبي (Toynbee Arnold) أحدُ كبارِ مؤرِّخي القرنِ الماضي: "لستُ واثقًا مِن أنَّ اتجاهَ تاريخِ هذه المِنطقةِ سيلتقي مع تقدُّمِ الإنسانيّة، ولا أجدُ مُبرِّراً لتفاؤلِ بعضِ النُخب".

يَصطدِمُ التحليلُ السياسيُّ، بـبُـعدَيْـه التاريخيِّ والرؤيويِّ، بميلِ الناسِ إلى القَبولِ بالمعالجاتِ الآنيّةِ لمشاكلِها على حسابِ الحلولِ الطويلةِ الأمَد. مع الوقت، يَـتطَـبّعُ الناسُ مع الأمرِ الواقِع، بينما المحلِّلُ يَـتمرّدُ عليه فيختلِفُ عن هوى الناسِ الـمُستَكفين. كأنَّ واجبَ المحلِّلِ أنْ يتشاءمَ ويُـحذِّر، وحقَّ الناسِ أنْ يتفاءلوا ويُـقْدِموا. هذا الواقعُ النفسيُّ والاجتماعيُّ يَـجعلُ المحلِّلَ نقيضَ عدميّةِ الحاضرِ ويُوسَمُ بالسلبيّة. إنَّ الصيغةَ الفُضلى هي التوفيقُ بين حكمةِ المتشائمِ وإرادةِ المتفائل.

الناسُ في لبنان ليسوا ضِدَّ الطروحاتِ السياديّةِ والمعالجاتِ الجذريّة، لكنّهم يَستهوِلونَها خَشيةَ

حدوثِ اضطراباتٍ تؤثِّر على حياتِهم اليوميّة. الناس تُحبُّ البِحارَ وتَخافُ الأمواجَ العاتيةَ. وأصلاً، قلّما عرَف التاريخُ ثورةً شعبيةً من دونِ قيادةٍ مُحرِّكة.

كان "جورج كليمنصو"، رئيسُ وزراءِ فرنسا في بداياتِ القرنِ الماضي، يَعتبر المسالِمين (les pacifistes) خيالِيّين خطيرين ومسؤولين عن وقوعِ الحروبِ والهزائمِ، لأنّ نظرتَهم الورديّةَ إلى "واقعِ الحال" (statu quo) تَضرِب معنوياتِ الأمّةِ وتُحطِّمُ طموحاتِها. وانتقَد "كليمنصو" بقساوةٍ "جان جوريس" (Jean Jaurès)، البرلمانيَّ الاشتراكيَّ المسالِمَ المتفائلَ الذي عارضَ دخولَ فرنسا الحربَ العالميّةَ الأولى، وقال عنه بعد وفاتِه: "لو كان جوريس رئيسَ وزراءِ سنةَ 1914 لاجتاحَ الألمانُ فرنسا".

مصدرُ التفاؤلِ الأساسيُّ في لبنان هو أملُ الناسِ بالحياةِ، لا عملُ الدولةِ للناس. في حياتِهم الخاصّةِ يَكتفي الناسُ بالملذّاتِ الصغيرة يُراكِمونها لتُؤلِّفَ سعادةً، أمّا في حياتِهم الوطنيّةِ فـيَنشُدون إنجازاتٍ لـتَحميَ مصيرَهم.

حياتُنا اليوميّةُ زاخرةٌ بالبُشْر: عيونُ أولادِنا، إبداعاتُ شبابِنا وشبّاتِنا، كَدُّ العاملِ وكَدْحُ الفَلاّح، تعبُ المزارِعِ وصِراعُ البَحّار، عِنادُ شعبِنا ومقاومتُه، انتشارُ المغتربين وإسهاماتُهم في تَقدُّمِ العلمِ والعالم، صمودُ اقتصادِنا وعُملتِنا الوطنيّة، حركةُ مطارِنا ومرافئِنا، نشاطُ المجتمعِ والناسِ عموماً، إلخ. لكنَّ جميعَ هذهِ الإيجابيّاتِ تحتاجُ إلى "الاستقرارِ المصيري". ويَنقُصها مِلحُ الدولة: هو مفقودٌ وهي غائبةٌ، وكلّما تَدخَّلت أفسَدَت وهَيمنَت وأقلقَت.

عادةً، الشعبُ يَـخلُق مشاكلَ للدولة، أما في لبنان، فالدولةُ تَخلُق مشاكلَ للشعب. مَن يَدُلُّني على يومٍ واحدٍ، بما فيه أيّامُ الآحادِ والأعياد، مَـرَّ من دونِ اشتباكٍ بين أركانِ الدولة؟ ورغمَ ذلك، في الانتخاباتِ المفتَرضةِ، سنَفتديهم "بالروحِ والدَم"... وبالغازِ والنَّفط. ليس اللبنانيّون متشائمين أو متفائلين، إنّهم مازوشيّون. افتَحوا "الـمُنجِد"... أصلاً، نحتاجُ إلى مُنجِد.

* جريدةُ الجُمهوريّة

....

* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبأ المعلوماتية